حُضُورُ شَخصِيَّةِ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عَلَيهِ السَّلَامُ) فِي القَصَائِدِ الأَندُلُسِيَّةِ
قَصِيدَتَي ابنِ جَابرٍ وَابنِ الجيَّابِ أنمُوذَجًا
دِرَاسَةٌ فِي الوَصفِ وَالسَّردِ

The presence of the personality of Imam Ali (peace be upon him) in the Andalusian poems

The poems of Ibn Jaber and Ibn al-Jayyab as a model.

Descriptive and Narrative Study

أ. م. لَيلَى منَاتِي مَحمُود

Laila Manati Mahmoud

ملخص البحث

تم اختيار قصيدتين لشاعرين أندلسيين في مدح شخص الإمام علي (عليه السلام)، هما ابن جابر وابن الجياب، ميدانًا للبحث لما تحملانه من تقنيات فنية متماسكة فيما يتعلق بالوصف والشخصية والسرد. وقد اتخذ الشاعران من شخصية الإمام علي (عليه السلام) الذي كان منارًا ينير لنا درب القرب إلى الله تعالى، فقد كانت أخلاقه قبسًا من نور خلق النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذي تربى في حجره وعاش على مائدة مكارم أخلاقه، فكان أنموذجًا قياديًا علميًا خلقًا وسياسة، يندر أو ينتفي وجوده في أمم أخرى، حوت القصيدتين مقاطع وصفية متنوعة الأشكال والتعابير، لذا جاء هذا البحث ليجري دراسة عليها عبر تحليل النصوص الوصفية وبيان أبعادها الفنية والجمالية.

Abstract

Two poems by two Andalusian poets in praise of the person of Imam Ali (peace be upon him), they are Ibn Jaber and Ibn Al-Jayyab, were chosen as a field for research for their coherent artistic techniques with regard to description, character and narration. The two poets took on the personality of Imam Ali (peace be upon him), who was a beacon illuminating us the path of proximity to God Almighty. A leadership model, scientific, ethical, and political, which is rarely found in other nations. The two poems contained descriptive passages of various shapes and expressions, so this research came to be studied by analyzing the descriptive texts and clarifying their artistic and aesthetic dimensions.

المقدمة:

تم اختيار قصيدتين لشاعرين أندلسيين في مدح شخص الإمام علي (عليه السلام)، هما ابن جابر وابن الجياب، ميدانًا للبحث لما تحملانه من تقنيات فنية متماسكة فيما يتعلق بالوصف والشخصية والسرد. وقد اتخذ الشاعران من شخصية الإمام علي (عليه السلام) الذي كان منارًا ينير لنا درب القرب إلى الله تعالى، فقد كانت أخلاقه قبسًا من نور خلق النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذي تربى في حجره وعاش على مائدة مكارم أخلاقه، فكان أنموذجًا قياديًا علميًا خلقًا وسياسة، يندر أو ينتفي وجوده في أمم أخرى، حوت القصيدتين مقاطع وصفية متنوعة الأشكال والتعابير، لذا جاء هذا البحث ليجري دراسة عليها عبر تحليل النصوص الوصفية وبيان أبعادها الفنية والجمالية، والكشف عن الدلالات المختلفة التي تمخضت عنها بمقدمة وتمهيد وأربعة محاور، تضمن التمهيد تحديد مفهوم الوصف وبيان وظائفه وعلاقته بالسرد، واختص المحور الأول بدراسة الوصف المقيد بالسرد من حيث السرد الوصفي، والوصف الموجه من السرد بأنماطه الثلاثة: الوصف البسيط والوصف المركب، والوصف الانتشاري، وخص المحور الثاني بدراسة (الوصف الحر) من حيث الوصف الدال على انفعال داخلي، والوصف الممهد للحدث، والوصف الدال على الحدث، واختص المحور الثالث بالوصف التصنيفي، أمّا المحور الرابع فتضمن الوصف التعبيري.

تمهيد:

يشكل الوصف «نظامًا أو نسقًا من الرموز والقواعد يستعمل لتمثيل العبارات أو تصوير الشخصيات

أي مجموع العمليات التي يقوم بها المؤلف لتأسيس رؤيته الفنية»[١]، أي إنّ الوصف يعكس الصورة الخارجية لحال من الأحوال أو لهيأة من الهيئات، فيحولها من صورتها المادية القابعة في العالم الخارجي إلى صورة أدبية قوامها نسيج اللغة، وجمالها تشكيل الأسلوب [٢]. إذ يقوم الوصف بالوقوف عند الملامح الخارجية للموصوف أو الموضوع الوصفي الواحد، وينشأ عن ذلك عدد غير محدد من الموضوعات التي تقبل الوصف [٣].

يقدم الوصف جملة من الأشياء التي ينبغي تصور دلالتها بصريًا، أي إنّه يسم كل ما هو موجود بطابع التميز والتفرد[٤]، فيعد الوصف بذلك «فاعلية بصرية مشهدية وهذا المجال الواسع الذي ترتع فيه العين وتمارس عن طريقه وظيفتها»[٥]. ويحدد الوصف الحدث ويأخذ هويته ويعمل على تصويره وتشخيصه ما يمكن للوصف أن يحدد الواقع ويكشف الرابط بين الشخص والطبيعة [٦].

من الصعب تصوير مقطع سردي خال من العنصر الوصفي، وكذلك إنّ اقتران الوصف بالسرد له تأثير مباشر في بناء الشخصية، وله أثر غير مباشر في تطور الحدث[٧]. ويعمل الوصف على إعطاء الإيقاع للراوي سمه عبر وصف تحركات الشخصية في الفضاء[٨].

إذ تربط السرد والوصف علاقة قوية تعود إلى الوظائف التي يؤديها في السرد والوصف في جوهر القصة وتعمل في إظهار الفقرات والملامح الوصفية على حساب اقتصادي في السرد[٩]. إذ إن السرد يخص المظهرين الزمني والدرامي. أمّا الوصف فعلى العكس من ذلك يقف عند الأشخاص والأشياء بوصفها عناصر

متجاورة متعاصرة[١٠]. بالرغم من ذلك يبقى الوصف عنصرًا مساعدًا للسرد إذ ليس بمكان الوصف أن يحل محل السرد فيقوم مقامه ويؤدي وظيفته، ولا السرد يمكن أن يستغني عن الوصف بذلك يكون الوصف نافعًا في السرد ومطورًا للحدث.

ومما سبق يعمل السرد على كشف الأحداث ويظهر حركة الشخصية، ويساعد الوصف على إعطاء أوصاف الشخصية والحدث والأشياء.

المحور الأول

الوصف المقيد بالسرد

١ـ السرد الوصفي: تتمثل العلاقة بين السرد والوصف بوجود أفعال حركية ووصفية في آن واحد. وهذه الأفعال تخضع في عملية تحققها كتابيًا للقوانين المتحكمة نفسها في إنتاج كل عملية وصفية.... إن كل حدث يمكن التعبير عنه بوساطة عدد من الأفعال التي تناسبه. ولذلك فإنّ اختيار فعل بعينه هو انتقاء لحالة وصفية تحدد نوعية الحدث أو نوعية الوعي به أو التفاعل معه حتى مع كل فعل عملية وصفية دائبة في العملية السردية أو خاضعة لها[١١]، ومن هنا تكثر الأفعال في السرد لتدل على الحركة وتبرز الأحداث والاعمال كافة، مما يبرر المقاطع الوصفية من الجمل السردية لذا تغدو الأفعال السردية في خدمة الوصف[١٢]. وفي سياق السرد الوصفي تأتي دلالات الوصف في مستوياتها المختلفة بحيث يمكن إلحاق الوصف بجدول السرد في مستوياتها المختلفة، إذ إن بؤرة السرد المركزية تتجمع في المقاطع الوصفية وتماثلها مع دلالات المستويات السردية الأخرى مما يؤدي إلى دفع الحدث ونموه وتطوره[١٣]. ومن أمثلة السرد الوصفي، قول ابن الجياب[١٤]:

وحَلّهُ مِنْهُ كهارون الرّضا
مِنْ صنْوهِ مُوسَى أخًا مسْتُوزرا
وكَفَاهُ أن نَطَق الكِتابُ بفضلهِ
فَغَدا الثّناءُ عَلَيه فيهِ مُسَطّرا
فأقرأ تَجد في سُرة الإنسانِ مِنْ
أوصافِهِ العزَ الرَّفيعَ الأخطرا
وشَهادةٌ فُرقانيّة مِثْلَ الذّي
مَلأَ القُلوبَ عليه حَسْرَةً وتَفطّرَا
طود النهى بحرُ النَّدى عَلمُ الهُدى
سمُّ العِدَى خَيرُ البَرِيّةِ مَعشَرا

تحوي الأبيات الوصفية سيلًا من الجمل السردية المتلاحقة التي لا تخلو أفعالها المتضمنة في القول (المنزلة، المدح، الثناء، والعز) من الصدى الوصفي أمام ذروة ربانية شامخة تجتمع فيه خلاصة المقامات الإلهية التي يعطيها الله لخاصة أوليائه؛ إذ أفصح الشاعر عن منزلة الإمام علي (عليه السلام) مستفيدًا من قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام): «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبّي بعدي»[١٥]، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحرص كل الحرص أن يشبه أمير المؤمنين (عليه السلام) بهارون، في كل شيء، وقد ذكرت الآيات القرآنية أن هارون أخوه، وابن أمه، وخليفتهُ في قومه، ووزيرهُ الذي يشدُّ به أزرهُ، فجعله النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، مع هارون في دفة القيادة وجعل الأمة تبعًا له، ماعدا النبوة التي كان يتحلى بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ثم ينتقل ابن الجياب إلى الأوصاف في سورة الإنسان المباركة، المذكورة في الآية القرآنية: ﴿ويُطعمونَ الطعّامَ على حُبّهِ مسكينًا ويتيمًا وأسيرا﴾[١٦]، وقد أفادت أسباب نزول هذه الآية في الإمام علي (عليه السلام)، لتكون شهادة فرقانية قائمة على الدليل والبرهان.

٢ـ الوصف الموجه من السرد:

فهو الوصف المنصب على الشخصية والأشياء التي تنتمي جميعها إلى سيرورة السرد، فكلما همّ السارد بتقديم شخصية، فإنّ السرد يفسح المجال أمام العملية الوصفية لأنه لابد من تقديم المظهر الخارجي للشخصية وسمات الأشياء القابعة داخله أو حواليه، وهي عملية تسبق عادة بتمهيد يضطلع به السارد مهيّئًا به القارئ لتلقي الوصف وفاسحًا المجال أمام الوصف الذي يعلن عن نفسه. وبذلك يكون منتميًا للسرد وموجهًا من طرفه بوساطة الموصوف والشيء أو الشخصية في استقبال التفاصيل الوصفية غير أنه من انتمائه للموصوف المشكل للحظة من لحظات قوة السرد يستطيع أن يتجاوز غائبة السرد[١٧].

أ ـ الوصف البسيط: يتكون هذا الوصف من جملة وصفية مهيمنة وقصيرة لا تحتوي إلّا على بعض التراكيب الوصفية الصغرى. إذ لا يستطيع هذا النمط من الوصف مجاوزة دلالته المسخر لها من السرد إلّا أنّه بفضل تلاحمه مع بقية الإشارات الوصفية الأخرى الخاصة بالشخصيات يشكل دلالة اجتماعية يكون لها دور فعال في فهم النص وتأويله[١٨]، ما يُعد هذا الوضع بصرف النظر عن أوصاف أخرى للشخصية[١٩].

ومن أمثلة الوصف البسيط، قول ابن جابر[٢٠]:

وكان من الصّبيانِ أوّلَ سابقٍ
إلى الدّينِ لم يُسبَق لطاعةِ مُرشِدِ

قدم البيت الوصف البسيط لإيمان الإمام علي (عليه السلام)، عبر تحديد أنَّه أول من آمن من الصبيان؛ لأنه أوّل الناس إسلامًا، فإن الروايات الصحيحة والمعتبرة الواردة عن النبي (صلى الله عليه

وآله وسلم) في هذا الشأن كثيرة..... ومنها أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخذ بيد علي (عليه السلام) فقال: هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر»[٢١]، وبهذا يعطي هذا الوصف أمرًا مسلمًا به ومجمعًا عليه، ولا يمكن إنكاره لأحد، أنه لم يسبقه أحد في طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، أمّا قول الشاعر بأنّه (عليه السلام) أوّل من أسلم من الصبيان فهو ممّا نسجته أيدي المخالفين ليرجح بهذا القول أسبقية إسلام غيره من الرجال والنساء ولا ينظر إلى أسبقية اسلامه (عليه السلام) بشيء لكونه صبيًا والسؤال المطروح إذا كان هو الأوّل من الصبيان فمن الثاني منهم والثالث؟ فلماذا يترك هؤلاء ولم يذكرهم التاريخ؟ وهم من السابقين.

وعليه لم يسبقه سابق في كونه أول من أسلم من الخلق ولم يكن سنُّهُ عائقًا في قبول إسلامه وقد خصه الله تعالى بصفات الأنبياء (عليهم السلام) ما خلا النبوة، فكان كنبي الله يحيى (عليه السلام) إذ أتاه الله الحكم صبيا، قال تعالى: ﴿**يا يحيى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وأتيناهُ الحُكمَ صَبِيًّا**﴾[٢٢].

ب ـ الوصف المركب: هو الوصف الذي ينصب على الشيء الموصوف الذي ينتمي إلى السرد شريطة كون هذا الوصف معقدًا، إما بفضل الانتقال من الموصوف إلى أجزائه ومكوناته أو الانتقال إلى المحيط الضام لهذا الموصوف أو المضموم ضمنه[٢٣]، ويتحقق هذا الوصف عن طريق أفعال السرد بوصفها حوافز تقع على شخصية عمل ما. وفي مثل هذه الحالة فإنّ انتقال الوصف من الشخصية إلى الأشياء وجمعها بمكان

واحد لا تتم بوضوح إلا إذا أتقن عليه الانتقال بدقة[٢٤].

ومن أمثلة الوصف المركب، قول ابن الجياب[٢٥]:

فمحبّةٌ لاشكَ في إيمانهِ
عَهدٌ به عَهدَ الرسَّول وأخبرا
حَكمُوا بِمفهوم الخِطابِ لصَدّهِ
فَمُبدعًا ومُفَسّقًا ومُكفّرا
سِيَّان مُبغضِه ومن فيهِ غَلاَ
حَادَا عَن النَّهجِ القّويم فأكبرا
لا تَسمعنَّ لِناصبٍ أو رافضٍ
فكلاهُما رَكِبَ الهَوَى فتحيّرا
والحَقُّ بَيَنَ الباطلين فخُذْ بهِ
وَتَحرَّ مَنهَجهُ الجليّ الأنوَرا

تؤدي الأفعال السردية في الأبيات الوصفية المتضمنة في القول (الإرشاد، والتهكم، والسخرية، والمنع) من شخصية أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى وصف شخصين الأول الذي أحب نصب العداء له، والثاني من آمن به وأحبه وغالا في حبه، فكلاهما زاغ عن الطريق القويم، وقد كانت الانتقالة واضحة بفضل إظهار صيغة النهي (لا تغل....)، و (لا تسمعن....)، مستفيدًا من حكمة الإمام علي (عليه السلام) «اياكم والغلوُّ فينا.. هلك فيَّ رجلان، محبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ»[٢٦]، فترجم هذا المعنى عندما ساوى بين المحّب المغالي للإمام (عليه السلام)، والمبغض الناصب له العداء، وبذلك يركب ابن الجياب الموقف تلو الموقف في تناسق واضح من الانتقالات عبر هذه الأبيات الشعرية.

ج ـ الوصف الانتشاري: هو الوصف الذي يتخذ لنفسه محورًا في نقطة ما بحيث يسمح له أن يراقب الأشياء والمشاهد واللوحات عبر صيغ سردية غير أن هذه التفاصيل التي تستقر نحو الوصف يكون المعنى فيها معروفًا سلفًا. ويعد هذا

النمط من الوصف أعلى درجات اقتراب الوصف من السرد، إذ يفسح المجال لاكتشاف حقائق أخرى في العلاقة بين السرد والوصف[٢٧].

ومن أمثلة الوصف الانتشاري، قول ابن جابر[٢٨]:

فنادى عليًّا ثم أبرأ عينَهُ
بِنَفثٍ كأن لم يُمسِ قبلُ بأرمدِ
فأعطاهُ إيّاها وقال لهُ ادعُهُمْ
ومهما أبَو فازهُد إليهم تُؤَيَّدِ
فجدّلَ منهم مَرحبًا عندما دعا
إلى الحربِ دعوى الفاتك المُتَمرّدِ
وقاتل طوْدَ اليوم والبابُ تُرسُهُ
يجولُ به للقومِ في كلِّ مَرصَدِ
فأعجَز هذا البابُ مِنْ بعد عَشرةٍ
فما الظنُّ في هذا القوي المُؤَيَّدِ

ينتقل الوصف في الأبيات السابقة من شفاء عيني الإمام علي (عليه السلام)، عندما كان أرمد، فبرئت حتى كأن لم يكن بهما وجع[٢٩]، إلى إعطائه الراية من قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحّب الله ورسوله، ويحّبه الله ورسوله كرار غير فرار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه»[٣٠].

ومن ثم بيان المكانة لأمير المؤمنين (عليه السلام) عند الله ورسوله، ثم الوصف العام للمعركة التي خاضها الإمام مع مرحب، ليبين قوة الإمام البالغة، وشجاعته النادرة في مواجهة مرحب وقتله، لتحقيق أهداف الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومقاصد الرسالة. وعن طريق حركة الإمام عبر أفعال عديدة هي (جّدل، دعا، قاتل، يجول، أعجز)، فضلًا عن الأوصاف (الفاتك، المتمرد، القوي، المُؤيّد).

ويعبر هذا الوصف عن مشهد معروفٍ سلفًا إلّا وهو الدور الأكبر للإمام علي (عليه السلام)، حينما قلع باب خيبر وبها انتصر المسلمون على اليهود، وقد قتل الإمام (عليه

السلام) مرحبًا وجملة من الأبطال الشجعان، وعليه فقد تواشجت جزئيات الوصف مع الأفعال والنعوت لإيضاح المشهد، فضلًا عن الدقة في التعبير.

ومن أمثلة الوصف الانتشاري، قول ابن الجياب[٣١]:

وعِبادةً وزَهَادةً وتواضعًا
وتشاغلًا بِمعاده مُتفكّرا
وتَجلّيًا بشمائلِ الفَضل الّتي
عَنَها يُقصّرُ من أطالَ وقَصّرا
لم يَقن مالًا غيرَ لامةِ حَربهِ
بيضاءَ صافية وَلدنا أسَمَرا
وسوابغًا تَذر السّيُوفَ عليةً
وسَوابقًا جُردًا، عِتاقًا ضُمّرَا
ألقَتْ لهُ الدُّنيا الحَلالَ فَرّدهُ
مُتَنَزهًا مُتزَهدًا وتنكّرَا

ينتقل الوصف السابق من الوصف العام لشخصية الإمام علي (عليه السلام)، (عبادة، زهادة، تواضعًا، تشاغلًا بالمعاد، تفكرًا)، إلى الجزئيات، بالرغم من أن الإمام هو المسؤول عن بيت مال المسلمين، إلّا أنه لم يملك من المال إلّا عّدة الحرب وهي السيف والدرع والفرس، للتعبير عن ترفّع الإمام عن الدنيا وشهواتها فردّ حلالها. وعن طريق الحدث الذي تقوم به شخصية الإمام علي (عليه السلام) عبر الأفعال (ألقت، ردّه، تنزه، تزهد، تنكرا)، ومما سبق فقد قدم الوصف الانتشاري مشهدًا معروفًا سلفًا للفعل (زهد)، فقد زهد الإمام في الدنيا، وأعرض عن ملذاتها طمعًا بما عند الله عزّ وجّل، ولو أراد لسجدت أمام قدميه الدنيا بما فيها، إلّا أنه رغب عنها متّبعًا سُنّة الأنبياء والصالحين، ففي وصفه لها يقول: «**وإنَّ دُنياكُم عندي لأهونَ من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تقضُمها مَا لِعَليٍّ ولنعيمٍ يَفنى ولَذّةٍ لا تبقى**»[٣٢]. مما يعكس إيحاءات كثيرة منها أن الدنيا لم تترك

في نفسه أثرًا كثيرًا كان أو قليلًا.

المحور الثاني: الوصف الحر

هو الوصف الذي يندمج مع السرد في شكل مشهد قصير أو لقطة موجزة كأنه إقحام مفاجئ يوقف تسلسل السرد، وهو أداة فنية تتأرجح بين كونها وصفًا وصورًا، وصفًا لأنها تقدم مشهدًا، وصورًا: لأنها تحاول التعبير بالرمز عن حدث فعلي أو انفعال داخلي[٣٣]. ويمثل هذا النمط من الوصف مجالًا للإسقاطات الذاتية التي تسمح للإنسان أن يدرسها عبر أوصافها الداخلية مما يضعه في صراع مستمر داخل الإنسان[٣٤].

١ ـ الوصف الدال على انفعال داخلي:

هو الوصف الذي يتيح للشاعر تدفق انفعالات داخلية تختلج في نفسيته أو بمعنى آخر رديف سبر الاغوار الداخلية، وتنفعل تحت تأثير حدث ما، إذ يتم التعبير بوساطة المشهد عن الإحساس المرفق لهذا الحدث[٣٥]. ومن أمثلة الوصف الدال على انفعال داخلي، قول ابن الجياب [٣٦]:

فلقد عُرفتُ بحب كل مُبيّضٍ
وعليه أرجو أن أموتَ وأحشرا
مِنْ أجلِ آل عَلِيٍّ الأعلى الذي
جَلَّتْ مناقِبُ مَجْدِه أنْ تُحصّرا
بَدْرٌ بَدَا في خَير آفاقِ العُلى
مِنْ هاشِمٍ أزكَى البَرِيّةِ عُنصُرَا
لمّا رأى شمْسَ الرّسالةِ والهُدى
قَدْ أشرقتْ قَبلَ الضياءِ فأبدرا
سبق الأنام مُصَدِقًا بالمصْطفى
ومُصلّيًا ومُهَلّلًا ومُكبّرا

تعبر الأبيات الوصفية عن الانفعال الداخلي للشاعر ابن الجياب الذي انجذب لكمالات أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد تحرك قلب الشاعر منجذبًا بحبه نحو علي وآله الأطهار، عن طريق العبارات (عرفت بحب....)،

(ارجو أن أموت....)، ليؤكد عمق ولائه لرسالة الإسلام وشدة ارتباطه بالقادة الرساليين، إذ إنهم (شمس الرسالة) التي غطت بنورها أرجاء المعمورة، فأبوهم علي الأعلى الذي سبق الخلق في التصديق بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبذلك فإنّ تدفق الانفعالات الداخلية للشاعر تؤكد إيمانه بالحّب الدال على الثبات، الذي يرجو أن يُحشر عليه.

٢- الوصف الممهد للحدث:

ينشأ الحدث من موقف معين ثم يتطور. وهذا التطور من نقطة لأخرى يتطلب التفسير ومن أجل أن يستكمل الحدث وصولًا إلى النهاية فلابد إذن من إرهاصات تمهد لهذا الحدث[٣٧]، لذا يأتي الوصف الممهد للحدث الذي يستند إليه الشاعر للإشارة إلى طبيعة اللحظات الموالية أو إلى طبيعة الحدث القادم وبفضله يقدم جوًا مناسبًا للحدث[٣٨]. ومن أمثلة الوصف الممهد للحدث، قول ابن جابر[٣٩]:

فمسّح عنهُ التُّرابَ إذ مَسَّ جلدَهُ
وقد نامَ نَومَ النّافر المُتفرَد
وقال له قولُ التّلطُّفِ قُمْ أبا
تُرابٍ كلامَ المُخْلصِ المُتورِّدِ
وأرسله عنهُ الرسولُ مبلّغًا
وخصَّ بهذا الأمرِ تخصيص مُفرَدِ
وقال هلِ التبليغُ عنّي ينبغي
لمن ليس من بيتي فبالقومِ فاقتدِ

تعطي الأبيات الوصفية السابقة تمهيدًا للحدث القادم، بوصف النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يمسح التراب عن جلد الإمام علي (عليه السلام)، في غزوة العشيرة[٤٠]، حين وجد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام (عليه السلام) وعّمار بن ياسر نائمين في دقعاء من التراب، فأيقظهما وحرك عليًّا، ولا يكتفي الوصف بالتمهيد

بل يقرنه بقول النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام: «قم أبا تراب»[41]، وبذلك يكون أمير المؤمنين هو أول من كُني بأبي تراب، حين وجده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) راقدًا وعلى جنبيه التراب[42]. وبذا يقدم جوًا مناسبًا لتهيئة القارئ للحدث القادم، ذلك أنه لما بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبا بكر ببراءة إلى مشركي قريش فسار بها يومًا وليلة ثم قال لعلي (عليه السلام): «اتبع أبا بكر فبلغها» ورد أبا بكر، فقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ قال: «لا إلا أنه لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني»[43]، وبذلك يقدم الوصف منقبة أخرى لأمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد كان أحرص الناس على دين الله ودين رسوله، وقد ظهر ذلك عبر تضحياته وحرصه ومؤازرته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحروب والغزوات وغير ذلك من المواقف التي شهد لها الناس.

٣- الوصف الدال على الحدث:

هو الوصف الذي يتحقق عندما تكون مهمة الوصف سرد أحداث مخبوءة عن جمل وصفية[44]، فيستعرض المواقف والقيم والشخصيات التي ينضج بها الحدث الفني بكل أبعاده ومراحله المختلفة، فتأتي كل مرحلة بدورها المطلوب بشكل كامل وصولًا إلى الحدث العام[45]. ومن أمثلة الوصف الدال على الحدث، قول ابن الجياب[46]:

فَعليٌّ الأعلى أتتُهُ شهادةٌ
من كفِّ أشقَى العالمينَ وأخسَرا
ولِنجلهِ أرضى شهادته التّي
أعلى بها الله المقَامَ وأظهرا

يبدأ الوصف بمؤازرة الحدث، فيقوم بتقديم كل ما من شأنه توضيح العّلو والرفعة لمنزلة الإمام (عليه السلام)، فضلًا عن ذلك فإن السرد

الحكائي يسعى إلى إقناع المخاطبين بأن إطفاء أنوار الله المضيئة المتجلية في سيرته العلوية المباركة كانت على يد أشقى العالمين، مستفيدًا من قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «**أشقى الأولين والآخرين قاتل عليّ**»[٤٧]، وما يثبت ذلك عبارة (أشقى العالمين وأخسرا)، ثم ينمو الحدث ويتطور عندما يقدّم الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه وعياله في معركة لم يكن لها مثيل؛ لأجل إعلاء الحق وإحقاقه، وإماتة الباطل وإزهاقه وهكذا كان الموقف بشكله التام دالًا على الحدث العام واكتماله، لأجل إقامة دولة الحق والعدل الإلهي.

المحور الثالث: الوصف التصنيفي:

هو الوصف الذي يحاول تجسيد الموصوف بحذافيره كلها بعيدًا عن المتلقي وإحساسه بهذا الموصوف، ويلجأ في ذلك إلى الاستقصاء والاستنفاذ[٤٨]؛ لذا يسمى بالوصف التفصيلي[٤٩]، أو الفوتوغرافي[٥٠] أو الاستقصائي[٥١]. ويقوم هذا النمط عبر استقصاء الموصوف على تناول أكبر قدر ممكن من تفاصيله؛ لذا تكون مقاطع الوصف بشكل طويل[٥٢] ويعد (جيرار جينيت) الوصف المتسع والمفصل بمثابة وقفة أو استراحة للوصف في أثناء السرد[٥٣].

١- وصف الشخصية: ومن أمثلة الوصف التصنيفي، قول ابن جابر[٥٤]:

وإنّ عليًّا كانِ سيفَ رسولهِ
وصاحبُه السامي لَمجدٍ مُشيَّدِ
وصهرَ النبي المجتبى وابن عمهِ
أبا الحَسنَينِ المُحتوى كلَّ سُؤددِ
وزوَّجهُ ربُّ السما مِنْ سمائِهِ
وناهيك تزويجًا مِنَ العرشِ قد بُدِي

يعبر النص الوصفي عن تفصيلات استقصائية للإمام علي

(عليه السلام)، فوصفه من حيث بعده الاجتماعي، فهو ابن عم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، تربى في حجره وعاش على مائدة مكارم أخلاقه، فتنامت أخلاقه شموخًا، وسجاياه علوًا ورفعة، فهو أفضل هذه الأمة مناقبًا ـ بعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأعلمها بالكتاب والسنة، ويمكن تلمس البعد الديني عن طريق الجهاد في سبيل دينه، فلولا سيفه لما قام الدين، ولا أنهدت صولة الكافرين. ويفصل الشاعر القول في شخصية ممسوسة بذات الله، فقد تواترت الأحاديث والروايات التي أكدّت أنّ زواج السيدة الزهراء وأمير المؤمنين (عليهما السلام)، كان بأمر الله عزّ وجل. فقد وظف الشاعر قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لفاطمة (عليها السلام): «زوّجتك سيّدًا في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. يا فاطمة، لمّا أراد الله أن أمّلكك بعلي، أمر الله جبريل فقام في السماء الرابعة، فصفّ الملائكة صفوفًا ثمّ خطب عليهم فزوجك من علي، ثّمّ أمر الله شجر الجنان فحملت الحليّ والحلل، ثمّ أمرها فنثرته على الملائكة، فمن أخذ منه شيئًا يومئذ أكثر مما أخذ غيره افتخر به إلى يوم القيامة»[٥٥]، مما يعكس البعد الفكري للشاعر في معرفته أن زواج النورين كان زواجًا مباركًا من عند الله، وقد شكّل نبراسًا لكلّ السالكين في طريق الهداية والرشاد.

ومن أمثلة الوصف التصنيفي ما جاء في تفصيلات استقصائية عن أفعال شخصية أمير المؤمنين على الوفق ما يلي، في قول ابن جابر[٥٦]:

لقد طلّقَ الدنيا ثلاثًا وكلّما
رآها وقد جاءت يقولُ لها ابعِدي
وأقربهم للحق فيها وكلُّهمْ
أُولو الحقّ لكن كان أقربَ مُهتدي

يعبر التفصيل الدقيق في الأبيات الشعرية عن إعراض الإمام العارف المستطيع التارك، فهو الباب الواسع والمدخل الرئيس الذي يستطيع الإنسان سلوكه من دون أن ينحرف عقائديًا أو يضلّ فكريًّا أو سلوكيًّا. لقد وظف الشاعر قول الإمام علي (عليه السلام): «يا دنيا غُرّي غيري قد طلقتك ثلاثًا»[٥٧]، في نصه الشعري؛ ليكون مثالًا تربويًا للإنسان المسلم بأن يجعل نفسه لا تطلب إلّا ما عند الله عز وجلّ، ولا تركن إلى إغراءاتها وشهواتها، ثم يستمر الشاعر في السرد، فيذكر لنا سمة بارزة وهي انقياده للحق حيث كان وأنى كان، انطلاقًا من إيمانه بالعدالة الاجتماعية، وأن لا تمايز بين المسلمين أبدًا.

المحور الرابع: الوصف التعبيري:

هو الوصف الذي يبين وقع الشيء والإحساس الذي يثيره هذا الشيء في نفس الذي يتلقاه[٥٨] ويقدم هذا الوصف عبر جملة وصفية قصيرة لا تحتوي إلّا على بعض التراكيب الوصفية الصغرى[٥٩]. ويلجأ هذا الوصف إلى الإيحاء والتلميح[٦٠]؛ لذا يسمى بالوصف الإجمالي أو الانتقائي[٦١].

ومن أمثلة الوصف التعبيري، قول ابن الجياب[٦٢]:

فإذا العساكر أحجمتْ ألفيتَهُ
مُتَقَدِّمًا يَلقى الحِمامَ الأحمرا
أسَدٌ إذا لاقى الجيوش رأيتَهُ
مُتَحدّيًا أبطالها مُتَخيرّا
فلسيفه في رَأسِ كُلِّ مُعانِدٍ
ومُكذّبٍ مِصداقُ ما قد أنكرا

تعطي الأبيات الوصفية السابقة، سمة بارزة عُرف بها أمير المؤمنين (عليه السلام)، ألا وهي شجاعته النادرة، فقد كانت حالة عقلية أكثر منها حالة عاطفية، امتزج فيها اليقين بالله وحب لقائه أكثر منها

حالة جسدية، فيتقدم لملاقاة الموت المضرج بالدم، وهكذا فإن هذه التراكيب الوصفية لا تمر بواقعة من الوقائع إلّا ويكون الإمام كالأسد متحديًا أبطال العرب الذين التحقوا بجيوش الكفر فيتخيرهم لمنازلتهم في ساحة المعركة، وهناك فعلان منجزان في صيغة الماضي اشتركا في إبراز المشهد الوصفي (لاقى، ورأيته)، فضلًا عن ذلك فإن سيفه الذي حصد رؤوس المعاندين المكذبين لدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي قال: «**ما قام ولا استقام ديني إلّا بشيئين: مال خديجة وسيف علي بن أبي طالب**»[٦٣].

ومن أمثلة الوصف التعبيري، قول ابن جابر[٦٤]:

وقد قالَ رسول الله إني مدينةٌ
مِن العلم وهو البابُ فالبابَ فاقصدِ
ومن كنتُ مولاه عليٌّ وليُّهُ
ومولاهُ فاصدق حب مولاك ترشدِ

تدل الأبيات السابقة عن تركيب وصفي بسيط جدًا لجوانب من هذه الشخصية العظيمة ذات الأبعاد العميقة والآفاق الوسيعة، فإن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خصّ الإمام عليًا (عليه السلام)، بعلوم ومعارف لم يخص بها أحدًا غيره، فقد أفاد من قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «**أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب**»[٦٥]، فيصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علمه بالمدينة، ثم يحصر طريق الدخول إليها بباب واحد وهو أمير المؤمنين (عليه السلام)، وعلى هذا فقد جعله الطريق الوحيد لأخذ تعاليم الشريعة، ومن ثم يوحي هذا الوصف أنه معصوم من الذنب والخطأ والاشتباه والسهو والنسيان؛ لأن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أدب عليًّا بالآداب التي

أدبّه بها الله، فلمّا استحكم الآداب كلهّا فوّض الأمر إليه، فقال: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**»(٦٦)، وقد عضد هذا الوصف فعل الأمر (أصدق) للإفادة بأن حب الأمام دال على الرشاد، وحبه متأصل في الذات المؤمنة، فهذه المنزلة العالية التي حصل عليها الإمام إنما تمثل درجة إيمانية في الذات المؤمنة.

الخاتمة:

١. يكثر الوصف المقيد بالسرد في قصيدتي ابن جابر وابن الجياب، من حيث نوعية: السرد الوصفي، والوصف الموجه من السرد ففي السرد الوصفي تكثر الجمل السردية المتضمنة التي لا تخلو من الصدى الوصفي أمام ذروة ربانية شامخة تجتمع فيه خلاصة المقامات الإلهية التي يعطيها الله لخاصة أوليائه، ليفصح لنا الشاعر عن منزلة أمير المؤمنين (عليه السلام) من النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). أما الوصف الموجه من السرد فيأتي بثلاثة أنماط: الوصف البسيط بجمل قصيرة تتلاءم مع بقية الإشارات؛ ليقدم لنا الشاعر إيمان الإمام علي (عليه السلام) عن طريق تحديد أنّه أوّل الناس إسلامًا. أما الوصف المركب فيأتي عبر تركيب الشاعر للموقف تلو الموقف في تناسق واضح من الانتقالات عبر الأبيات الوصفية، فيساوي بين المحّب المغالي للإمام علي (عليه السلام) والمبغض له. أما الوصف الانتشاري فهو ينقل المتلقي إلى مشاهد عدة، ولوحات كما في وصف مشهد شفاء عين الإمام (عليه السلام) عندما كان أرمدًا، إلى إعطائه الراية من قبل الرسول. (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن ثم الوصف العام للمعركة التي خاضها ليبين لنا قوة الإمام البالغة وشجاعته النادرة في

الحروب. أو وصف إعراض الإمام عن الدنيا.

٢. يقوم الوصف الحر في القصيدتين بتقديم مشاهد بعيدة عن السرد، فيأتي بثلاثة أنماط: الوصف الدال على انفعال داخلي كما في انجذاب الشاعر ابن الجياب لكمالات أمير المؤمنين (عليه السلام)، ليؤكد عمق ولائه لرسالة الإسلام وشدة ارتباطه بالقادة الرساليين. أما الوصف الممهد للحدث فهو يأتي في مقاطع وصفية كثيرة، كالوصف الممهد لإرسال عليٍّ (عليه السلام) ببراءة إلى مشركي قريش، وبذلك يقدم الوصف منقبة أخرى لأمير المؤمنين فقد كان أحرص الناس على دين الله ورسوله. أما الوصف الدال على الحدث فيوضح العلو والرفعة لمنزلة الإمام (عليه السلام)، فضلا عن ذلك فإن السرد الحكائي يسعى إلى إقناع المخاطبين بأن إطفاء أنوار الله المضيئة المتجلية في سيرته العلوية المباركة كان على يد أشقى العالمين.

٣. يعمد الشاعران في القصيدتين إلى الوصف التصنيفي عبر استقصاء المعلومات واستنفاذها عن أوصاف الإمام (عليه السلام)، فيصفه من حيث بعده الاجتماعي فيفصل القول في زواج علي من فاطمة الزهراء (عليهما السلام).

٤. يقوم الوصف التعبيري بجملة وصفية قصيرة ليترك المجال للقارئ ليكتشف أن شجاعة الإمام علي (عليه السلام) كانت حالة عقلية أكثر منها حالة عاطفية، امتزج فيها اليقين بالله وحب لقائه أكثر منها حالة جسدية، وكذلك كونه معصومًا من الخطأ؛ لأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أدب عليًا بالآداب التي أدبه بها الله.

الهوامش:

١. ضحك كالبكاء، إدريس الناقوري، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٦، ص١٢٧.

٢. في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م، ص٢٥٨.

٣. قضايا السرد عند نجيب محفوظ، وليد نجار، منشورات دار الكتاب اللبناني، المكتبة الجامعية، مكتبة المدرسة، ١٩٨٥م، ص١٤٩.

٤. قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، ترجمة: صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٤٠.

٥. جدل العين والذاكرة في مجموعة حائط البنادق القصصية لعبد الخالق الركابي، إبراهيم جنداري، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٧) لسنة ١٩٩٥م، ص٧٨.

٦. الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٣٣.

٧. البيئة في القصة، وليد أبو بكر، مجلة الأقلام، بغداد، العدد (٧) لسنة ١٩٨٩م، ص٦٤.

٨. الإيقاع في القصة القرآنية، إبراهيم جنداري ونبهان حسون السعدون، مجلة التربية والعلم، كلية التربية ـ جامعة الموصل، العدد (٢٩) لسنة ٢٠٠١م، ص٥٢ـ٥٣.

٩. بنية الشكل الروائي (الفضاء. الزمن. الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٧٧.

١٠. النظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٣، بغداد، ١٩٨٦م، ص٤٤١.

١١. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، دار اليسر للنشر، المغرب، ١٩٨٩م، ص٣٠.

١٢. الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، موريس أبو ناضر، دار النهار

للنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٣٣.
١٣. أبحاث في النص الروائي العربي، سامي سويدان، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٥٨.
١٤. ديوان (أبو الحسن علي) ابن الجياب الأنصاري الأندلسي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. جمعة شيخة، تونس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م، ص١٤٨.
١٥. صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، (كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي)، دار ابن كثير، لبنان، بيروت، ٢٠١٨م، ج٣ / ٢٣/ ح٣٧٠٦.
١٦. سورة الإنسان، آية (٨).
١٧. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، ص٣٢.
١٨. المصدر نفسه، ص٣٣.
١٩. أبحاث في النص الروائي العربي، سامي سويدان، ص١٤٤.
٢٠. شعر ابن جابر الأندلسي (محمد بن أحمد بن علي الضرير) (ت٧٨٠هـ)، صنعه د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٩.
٢١. تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن (ابن عساكر ت: ٤٩٩هـ)، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة، عبد الله بن سالم، عبد الله بن عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٥م، ج٤٢ص٤١- ٤٣.
٢٢. سورة مريم: اية ١٢
٢٣. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، ص٣٣.
٢٤. في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، ص٣٠٠.
٢٥. ديوان ابن الجياب، ص١٥٣.
٢٦. غُرر الحكم ودُرر الكلم للإمام علي (عليه السلام) (ت ٤٠هـ)، جمع: عبد الواحد بن محمد الآمدي (ت٥٥٠ هـ)، تحقيق: مصطفى الدرايتي، وحسين الدرايتي، إيران، الناشر، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٠هـ، ج٢ ص١١٨.
٢٧. قضايا السرد عند نجيب محفوظ، د. وليد نجار، منشورات دار الكتاب

اللبناني، المكتبة الجامعية، مكتبة المدرسة، ط١، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٦.
٢٨. شعر ابن جابر، ص٤٩.
٢٩. تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج٤١ص٢١٩.
٣٠. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م، ج٣ ص٣٤٩.
٣١. ديوان ابن الجياب، ص١٥٢.
٣٢. نهج البلاغة (المختار من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، للإمام علي (عليه السلام)، تصنيف: محمد بن الحسين الملقب بـ (الشريف الرضي)، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب المصري، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٣٤٧.
٣٣. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، ص٣٨.
٣٤. أبحاث في النص الروائي العربي، سامي سويدان، ص١٤٢.
٣٥. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، ص٣٩.
٣٦. ديوان ابن الجياب، ص١٤٨.
٣٧. فن القصة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، ط٧، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٩.
٣٨. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، ص٣٩.
٣٩. شعر ابن جابر، ص٥١.
٤٠. غزوة العشيرة الواقعة في جمادي الأول من السنة الثانية الهجرية، السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٦٠١.
٤١. خصائص أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، لأبي عبد الرحمن الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣ هـ)، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ٤١٩هـ، ص٢١١.
٤٢. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م، ج٣ ص١٢.
٤٣. علل الشرائع، الصدوق، ص١٩٠. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج٨ ص٢٣٩.
٤٤. وظيفة الوصف في الرواية، عبد

اللطيف محفوظ، ص٤٠.

٤٥. النهايات المفتوحة (دراسة نقدية في فن انطوان تشيكوف القصصي، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٥م، ص٤٩.

٤٦. ديوان ابن الجياب، ص١٥٤.

٤٧. مسند أحمد (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١ هـ))، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن، التركي الناشر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ، ج٤ ص٢٦٤.

٤٨. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، أحمد قاسم سيزا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٨١.

٤٩. ينظر: البناء الفني لرواية الحرب في العراق (دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة)، عبدالله إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨م، ص١٣٢.

٥٠. ينظر: فضاء النص الروائي، د. محمد عزام، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، مطبعة اليمامة، حمص، ط١، ١٩٩٦م، ص١١٥.

٥١. ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق (الوصف وبناء المكان)، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ٢٠٠٠م، ص٢٣.

٥٢. ينظر: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، أحمد قاسم سيزا، ص٨١.

٥٣. ينظر: حدود السرد، جيرار جينيت، ترجمة: بنعيس بو حمالة، مجلة آفاق المغربية، العددان (٨ـ ٩) لسنة ١٩٨٨م، ص٦٠.

٥٤. شعر ابن جابر، ص٤٩.

٥٥. لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، سلمان عبد الفتاح، دار النشر الإسلامي، لبنان، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٣ ص٩٦.

٥٦. شعر ابن جابر، ص٥١.

٥٧. غُرر الحكم ودُرر الكلم، الإمام علي

(عليه السلام)، ص٥٧٥.
٥٨. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، أحمد قاسم سيزا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٨١.
٥٩. فضاء النص الروائي، د. محمد عزام، ص٨١.
٦٠. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، أحمد قاسم سيزا، ص٨١.
٦١. ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق (الوصف وبناء المكان)، د. شجاع مسلم العاني، ص٢٣.
٦٢. ديوان ابن الجياب، ص١٤٩.
٦٣. شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٦٨هـ، ط٥، ج٢ ص٢٣٣.
٦٤. شعر ابن جابر، ص٤٩.
٦٥. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٠٥ هـ)، طبعة فريدة بفهرس الأحاديث الشريفة، بإشراف الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٣ ص١٢٦.
٦٦. روح المعاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠ه)، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج٤ ص٢١٢.

المصادر:

١. القرآن الكريم.

٢. أبحاث في النص الروائي العربي، سامي سويدان، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.

٣. الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. الإيقاع في القصة القرآنية، إبراهيم جنداري ونبهان حسون السعدون، مجلة التربية والعلم، كلية التربية ـ جامعة الموصل، العدد (٢٩) لسنة ٢٠٠١م.

٥. البيئة في القصة، وليد أبو بكر، مجلة الأقلام، بغداد، العدد (٧) لسنة ١٩٨٩م.

٦. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م.

٧. البناء الفني في الرواية العربية في العراق (الوصف وبناء المكان)، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ٢٠٠٠م.

٨. البناء الفني لرواية الحرب في العراق (دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة)، عبد الله إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨م

٩. الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد بن منيع، دار صادر، بيروت.

١٠. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٠٥ه)، طبعة فريدة بفهرس الأحاديث الشريفة، بإشراف الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

١١. النظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٣، بغداد، ١٩٨٦م.

١٢. النهايات المفتوحة (دراسة نقدية في فن أنطوان تشيكوف القصصي، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٥م.

١٣. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، أحمد قاسم سيزا، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

١٤. بنية الشكل الروائي (الفضاء. الزمن. الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي

العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
١٥. تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن (ابن عساكر ت٤٩٩ه)، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة، عبد الله بن سالم، عبد الله بن عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٥م.
١٦. جدل العين والذاكرة في مجموعة حائط البنادق القصصية لعبد الخالق الركابي، إبراهيم جنداري، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٧) لسنة ١٩٩٥م.
١٧. حدود السرد، جيرار جينيت، ترجمة: بنعيس بو حمالة، مجلة آفاق المغربية، العددان (٨-٩) لسنة١٩٨٨م.
١٨. خصائص أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، لأبي عبد الرحمن الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ٤١٩هـ.
١٩. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
٢٠. ديوان (أبو الحسن علي) ابن الجياب الأنصاري الأندلسي (ت٧٤٩ه)، تحقيق: د. جمعة شيخة، تونس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م.
٢١. روح المعاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠ه)، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
٢٢. شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٦٨ه.
٢٣. شعر ابن جابر الأندلسي (محمد بن أحمد بن علي الضرير) (ت٧٨٠هـ)، صنعه د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
٢٤. صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦ه)، (كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي)، دار ابن كثير، لبنان، بيروت، ٢٠١٨م.
٢٥. ضحك كالبكاء، إدريس الناقوري، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٦.
٢٦. غُرر الحكم ودُرر الكلم للإمام علي (عليه السلام) (ت٤٠هـ)، جمع: عبد

الواحد بن محمد الآمدي (ت٥٥٠هـ)، تحقيق: مصطفى الدرايتي، وحسين الدرايتي، إيران، الناشر، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٠هـ.

٢٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩م.

٢٨. فضاء النص الروائي، د. محمد عزام، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، مطبعة اليمامة، حمص، ط١، ١٩٩٦م.

٢٩. فن القصة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، ط٧، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٠. في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م

٣١. قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، ترجمة: صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٧م.

٣٢. قضايا السرد عند نجيب محفوظ، د. وليد نجار، منشورات دار الكتاب اللبناني، المكتبة الجامعية، مكتبة المدرسة، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

٣٣. لسان الميزان، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، سلمان عبد الفتاح، دار النشر الإسلامي، لبنان، بيروت، ٢٠٠٢م.

٣٤. مسند أحمد (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ))، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن، التركي الناشر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٥. نهج البلاغة (المختار من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، للإمام علي (عليه السلام)، تصنيف: محمد بن الحسين الملقب بـ (الشريف الرضي)، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب المصري، ط٤، ٢٠٠٤م.

٣٦. وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، دار اليسر للنشر، المغرب، ١٩٨٩م.

ومن كلام لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في [الأمانة] : ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّماوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُول أَوْ عَرْض أَوْ قُوَّة أَوْ عِزٍّ لاَمْتَنَعْنَ، وَلكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الْأِنْسَانُ، {إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا}.

المصدر: المصدر: نهج البلاغة ص ٥٠٥

الملحق:

قراءة في مقدمة سماحة آية اللّه محمد رضا الخرسان لكتاب الانتصار للشريف المرتضى (عليهما رحمة اللّه ورضوانه)

بقلم: أ. د. صلاح مهدي الفرطوسي.

قدَّم لي الصديق العزيز السيد العلامة المحقق محمد صادق الخرسان مشكورًا نسخة من كتاب (صدى الرحيل) الذي أشرف على إعداده السيد عبد الستار الحسني، وطبعته مطبعة الرائد سنة ٢٠١٩م في مائتين وأربع وستين صفحة؛ ونشر بعد رحيل السيد الفقيه محمد رضا الخرسان إلى جوار ربه (رضوان الله عليه)؛ واحتوى الكتاب على مقدمة، وخواطر مع رحلة الفجر تناول فيها السيد صادق سيرة حياة والده ومكانته العلمية والاجتماعية والتربوية، وتراثه المطبوع والمخطوط؛ وهو عرض على وجازته جامع لأطوار حياة الراحل الكبير من المهد إلى اللحد؛ ثم اختار من تراثه ثلاث مقدمات قدم فيها الفقيد ثلاثة كتب فقهية تراثية قديمة؛ وهي (كتاب المناقب) للخوارزمي من تأليف أبي المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد البكري المكي الحنفي المتوفى سنة ٥٦٨هـ، و(كتاب مقدمة النصائح الكافية لِمن يتولى معاوية) من تأليف السيد محمد بن عقيل بن عبد الله الحسيني المتوفى سنة ١٣٥٠هـ، و(كتاب الانتصار) للسيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ، الذي أنا بصددها.

ونشر بعد المقدمات بعض ما أبَّن به الفقيد (رضوان الله عليه)، وهو بعنوان (نشيج الغياب) لما جادت به قرائح بعض الأدباء والشعراء من مشاعر ومواساة. وتبعه من بعد بثلاث إجازات حبرها للفقيد بعض الأعلام، منها إجازة بعنوان ثبت الإثبات، وهي للسيد شرف الدين العاملي المطبوعة بصيدا سنة ١٩٤٩م، وتبعها بإجازة الشيخ حسين القديحي، وهي بخط يده، ثم إجازة

الشيخ أغا بزرك الطهراني، وختم برسالة للسيد شرف الدين (رضوان الله عليه) التي أرسلها للسيد الفقيد في ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٧٦هـ، ردًّا على رسالته، ثم كلمة الرضا في المؤتمر الدولي لتكريم الإمام شرف الدين. وختم الكتاب بمجموعة من صور الفقيد في المناسبات المختلفة. فله الشكر والمنّة على ما أهدى، وعظم الله له الأجر والثواب بمصابه الجلل، إنه على كل شيء قدير. وبسبب صلة الرحم التي ربطتني بآل الخرسان عامة وبالصديق العزيز العلامة المحقق السيد صادق، رأيت أن أواسيه بفجيعته، وذلك بعرض ما حبّره الفقيد في مقدمته لكتاب الانتصار للشريف المرتضى رضوان الله تعالى عليهما.

أقول: مازال لقائي بالسيد الرضا الخرسان (طيَّب الله ثراه) كأنه الساعة على الرغم من مرور سنيات على آخر مرة تشرفت فيها بزيارته، وما زرت ساحته مرة إلَّا وخرجت من داره العامرة وأنا أشعر بالدهشة الممزوجة بالمتعة والإجلال والاحترام لذلك السيد الوقور، والإفادة من مجلسه المتخم بالأطايب، من علم، وثقافة، وأدب، وفقه، ورواية، ودروس تربية وأخلاق.

ويوم ذهب إلى جوار جده المرتضى (عليه السلام) لم أكن بالمدينة المقدسة حين ذاك كي أواسي أخي الصادق بمصابه وأشارك بتشييع الفقيد إلى مثواه الأخير؛ فشعرت بفجيعة كبيرة، وأسف وحزن شديدين؛ إذ خسرت المدينة برحيله عالمًا يصعب أن يجود الدهر بمثله علمًا، ووسطية، وسماحة، وتواضعًا، وطيب معشر؛ وكان فوق هذا وذاك تربويًا أنفق ربيع عمره وخريفه في الاهتمام

بتنشئة جيل صالح من أبناء وطلبة حوزة.

ولد السيد الخرسان سنة ١٩٣٣م ورحل مأسوفًا عليه سنة ٢٠١٩م، عن عمر جاوز الثمانية عقود كان فيها زاهدًا بما في أيدي الناس، منصرفًا إلى درسه وتدريسه ورعاية أبنائه وطلبته في النجف الأشرف، ولم تستطع تقلبات الأحداث التي مرّ بها أن تجرفه إلى مهاويها كما جرفت غيره، واستطاع بحنكة وتدبر أن يبتعد عن مزالقها على الرغم من الترهيب والترغيب الذي تعرض له؛ فرضوان الله عليه يوم ولد، ويوم ارتحل، ويوم يبعث حيًّا، ويكفيه عزًّا فوق مجده الباذخ أن يكون من أبنائه النجباء بكره العلامة الكبير السيد محمد صادق الخرسان أطال الله عمره، أحد أساتذة الحوزة العلمية اليوم في مدينة إمام المتقين، وأول من صلّى الجماعة من علماء مدينته في حَرَمِهِ (عليه السلام) بعد السقوط.

وقد ربطتنا أبناء جدِّي الشيخ علي الفرطوسي طيب الله ثراه بالسادة آل الخرسان خؤولة نعتز بها ونفخر، ونتمسك، ونتعلق؛ لما لهذه الأسرة الكريمة من باع طويل في خدمة مذهب أهل البيت (عليهم السلام)؛ إذ عرفت فيهم الحوزة العلم والتواضع الجم، والوسطية التي تجمع ولا تفرق، والبعد عن كل ما يشين، والانصراف إلى الله جيلًا بعد جيل.

فتح الفقيد العزيز عينيه في بيت عربي من بيوتات المدينة العلمية الأصيلة التي لا تعرف غير الدرس والتدريس، فوالده السيد حسن من آيات الله في زمانه علمًا وثقافة وحرصًا على تنشئة أبناء أسرته تنشئة علمية فاضلة، وفقيهًا من

كبار فقهاء عصره، وأستاذًا يشار إليه بالبنان، وكادت المرجعية الدينية تحط رحالها عنده لولا أنه اعتذر عنها وَرَعًا وخوفًا من أن ينزلق في مهاوي دنيوية عافتها نفسه الأبية الزاهدة، وقد تربى السيد الرضا أيضًا في عين البيت الذي ربَّى والده، بيت عميد أسرة آل الخرسان آنذاك السيد عبد الرسول؛ فأخذ السيد حسن ولده الرضا بما أخذه به أبوه مقتديًا بسيرة أجداده أهل بيت النبوة (صلوات الله وسلامه عليهم).

والحديث عن هذه الأسرة الفاضلة طويل لا يمكن عرضه في هذه العجالة التي خصصتها لموضوع بعينه.

وما إن تعدَّى السيد الرضا مرحلة الطفولة إلى الشباب حتى أحس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، والعبء الثقيل الذي عليه أن يحمله بكل قوة وإباء وشمم بعد رحيل والده.

وأما المرتضى فولد سنة ٣٥٥هـ في عصر العصور القرن الرابع، قرن الدولة الشيعية في المشرق والمغرب، عصر القمم الشامخة والانفجار الحضاري في تاريخ الإسلام المعرفي، وهو عصر النور والتنوير الذي ليس له من مثيل في تاريخ الإنسانية الزاهر، وقد قلت عنه من قبل من بين ما قلت: إنه (عصر التوهج، والانفتاح، والتحضر، والتزاوج، والتلاقح؛ إذ أظلَّ أمّة من أبرز علماء العربية والإسلام، كالطبري، والهمداني، واليعقوبي، والرازي، والفارابي، وابن النديم، والصاحب، وابن دريد، وابن جنِّي، والأزهري وأبي الفرج الأصفهاني، والهروي، والبيهقي، واللخمي، وابن رشيق، والقزاز، والقالي، والزبيدي، وغيرهم، وهو بلا شك عصر

التفسير، والقراءات، والحديث، والفقه، وعلوم العربية، وعلم الكلام، والرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والطبيعيات، والطب، والصيدلة، والفلاحة، والتاريخ، والجغرافيا، والرحلات، والسير، والأنساب، والملل، والنحل، والأهواء.. وهو أيضًا عصر الزهد، والتصوف، واللهو، والمجون، والفسق، والتفكك، والخلاعة، والفقر، والكدية، والشطَّار).

وما بين ولادة المرتضى وحين رحيله سنة ٤٣٦هـ (رضوان الله عليه) في ذلك العصر العجيب حياة حافلة بالعلم والمجد والسؤدد والعظمة؛ إذ نهل من معين أئمة عصره من مراجع الشيعة الكبار ببغداد وغيرهم، وشب نابغة لا يدانيه أحد بعد أن تجاوز شيوخه في فنون المعرفة التي كانت سائدة في زمانه.

وأزعم أن السيد حينما تصدى لعرض أطوار حياة المرتضى (نور الله تربته)، كان عارفًا بأنه يتصدى لأمر جلل، وعملاق من عمالقة الفكر والثقافة الإسلامية، وبحر من بحور الأدب والفقه والتفسير وعلم الكلام، وقامة عالية من قامات الشعر في ذلك العصر المتخم بالكبار. ولم يكن الرضا غافلًا عن كل هذا، ولا أظنه كان مترددًا في ولوج ذلك الصعب، فقد تأسس تأسيسًا علميًّا متينًا ونهل من مناهل المعرفة العذاب، في بيئة مدينة إمام المتقين العلمية زمن المراجع الكبار في العصر الحديث. والنجف منذ عصر الشيخ الطوسي إلى يوم الناس هذا بيئة التشيع في العالم، فما من طالب علم أو مجتهد أو عالم أو مرجع في أقطار الدنيا إلَّا حجَّ لها، وتزود من زاد علمائها الأعلام، وكان الزحام على أشده في حلقاتها

التي تبدأ مع الفجر ولا تنتهي إلا بعد غسق من الليل.

ومما يحسب للسيد الخرسان قدرته الهائلة على لي معصم اللغة إلى جانبه، ويوم قرأت ما قرأت له أصبت بالدهشة من لغته التي يصعب الوقوف على مثيل لها فيما قرأته لغالبية الباحثين من رجال الدين خاصة، وأزعم أنه حينما كتب مقدمة الانتصار علا فيها على لغة كثير من الكتاب العراقيين والعرب أيضًا، ففاز بالقدح المعلَّى؛ أنظر إليه كيف افتتح تلك المقدمة الرائقة الجميلة كي يحدث الدهشة في نفس قارئه ويمسك بتلابيبه حتى لا يهرب منه؛ قال: (كنت أحسبني -وأنا أنتظم حلقات الدراسة العليا في حوزتنا- أن فرص التفرغ والتعمق العلميين ستكون أكثر سنوحًا لي، وأوفى مواصلة واستدامة، ولكن ما إن توغلت في المضمار حتى بدا لي أن الشوط أكثر طولًا مما قدَّرت، وأكبر جهدًا ومعاناة مما تصورت، وأن ما أنهد إليه من تعمق في دراساتنا ليس بالأمر الذي يحسبه البعض هيِّنًا، وإن الطريق إليه معبدة سالكة، بل الأمر أخطر من أن يُلَمّ به في سنوات قابلة للتحديد بالكم...)، وهكذا شرق بقارئه بعيدًا عن المرتضى وكتابه الانتصار، كي يلفت نظر من لا علاقة له بالدراسة الحوزوية إلى صعوبة الغوص في غمراتها بسبب يبسها ووعورتها، وصعوبة مباحثها، وما تحتاج إليه من صبر وجدٍّ وجلدٍ ومثابرة في لغة مشرقة فصيحة، وبمسحة بلاغية آسرة.

ثم أخذ بيده ثانية إلى التعريف بعلم الهدى عن طريق مدخل رائق أيضًا، كي لا يسارع الضجر إليه، بعبارة حلوة بليغة فصيحة، فهو

معجب بالشريف، ويريد من قارئه أن يعجب به أيضًا، ولاسيما بعد أن طغت سمعة الرضي صاحب النهج على سمعته، وسار نهجه في آفاق الدنيا، وتلاقفته أيدي الكتاب والباحثين والمحققين منذ عصر الرضي إلى يوم الناس هذا، فشرح مرات كثيرة وحقق مرَّات، في وقت لا يقل فيه أخوه المرتضى عنه علمًا وأدبًا وشعرًا، بل قد تجاوزه، فأراد أن ينصف المرتضى الذي لم يفز بما فاز به أخوه من مجد باذخ وسمعة شغلت الباحثين والكتاب؛ قال: (ولكنني ما إن بدأت بسبر أحوال سيدنا المرتضى، حتى أحسست بطارئ غريب كاد يدهشني ويأخذ على فكري كل منافذه، فقد وجدتني أمام عملاق من عمالقة الفكر، وقمة من قمم الإسلام الشامخة.. وسيرته حافلة بكثير مما ينبغي أن يتمهل عنده الكاتب لاستخلاص العبر واستجلاء الحقائق، وآثاره هي بالطبع عصارة أفكاره التي تمخضت عنها حياته هي أيضًا ما لا يسعه المرور عليها مرورًا لا يتجاوز في حدوده مطالعة الأسماء والرموز)، ولم يكتف بهذا كي يمهد لقارئه فسحة الدخول إلى سيرة هذا الكبير قبل أن يدخل إلى كتابه الانتصار، وإنما قال: (إن جوانب العظمة في الشريف المرتضى منفسحة انفساح مدة عمره التي تجاوزت الثمانية عقود، وأبعادها مترامية ترامي آثاره ومآثره)، ونقل عن ابن بسام قوله: إنه كان (إمام أئمة العراق بين الاختلاف والافتراق، إليه فزع علماؤها، وأخذ عنه عظماؤها، صاحب مدارسها وجامع شاردها وآنسها، ممن سارت أخباره، وعرفت بها أشعاره، وحُمدت في ذات الله مآثره وآثاره، وتواليفه في

أصول الدين، وتصانيفه في أحكام المسلمين مما يشهد أنه فرّع تلك الأصول، ومن أهل ذلك البيت الجليل)، ونقل شهادات غيره.

وذكر أن السياسة أخذت مأخذها من والده الشريف أبي أحمد الحسين بين التغييب والنفي، فقد كان بحسب ما نقله السيد الخرسان سيّدًا عظيمًا مطاعًا، وكانت هيبته أشد من هيبة الخلفاء؛ فخاف منه عضد الدولة فاستصفى أمواله بعد أن رأى شدة سطوته وبأسه وغلبته على أعدائه، فقبض عليه وسجنه بقلعة شيراز، وظل سجينًا منفيًّا عن بلده إلى أن مات عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ، مما أبعده عن النشأة الأولى لولديه المرتضى والرضي؛ ولكنّ الله رزق الشريفين ومنَّ عليهما بأمهما السيدة فاطمة بنت أبي محمد الحسن الناصر الصغير، وهي من عين البيت الشريف الذي انحدر منه أبوهما، وبسبب محنتها بتغييب زوجها (يممت بوجهها شطر شيخ الإمامية في عصره، وفقيههم المتكلم الشيخ المفيد طالبة منه أن يتولَّى تعليمهما.. فلبَّى الشيخ طلبها بعد أن احتفى بالزائرة الجليلة، وبالغ في احترامها، ولهذه السيدة الجليلة ألف الشيخ المفيد كتابه أحكام النساء). وهكذا أثار السيد الخرسان في نفس متابعه ما أثار من أحاسيس تدفعه لمواصلة الدرب معه حتى نهايته، بتركيز شديد وعبارة تبتعد عن الإطالة التي لا طائل من ورائها، وأسلوب يذكرنا بفن القول الجميل. وكان لابد أن يمنح القارئ فرصة لمعرفة هذا العملاق الكبير بمسرد على إيجازه أشار فيه إلى جميع جوانب نشأته ونسبه الشريف، فقد ولد في أوج الانفجار الحضاري الكبير الذي

ألمحت إليه.

ومن عجيب ذلك العصر الذي ولد فيه المرتضى أن طالب العلم لم يكن في حاجة إلى مال أو تذكرة سفر للقاء الكبار من علماء الأمة، فهو بكفالتها في حلِّه وترحاله، يشرق ويغرب في آفاق الدنيا تلميذًا وشيخًا؛ وقد شهدت النجف الأشرف ما شهدته تلك العصور من كفالة طالب العلم المهاجر إليها مسكنًا ومأكلًا، وما يحتاج إليه من مصاريف.

قال: (كان مولده الشريف في دار أبيه بمحلة باب المحول في الجانب الغربي من بغداد الذي يعرف اليوم بالكرخ في رجب سنة ٣٥٥هـ أيام خلافة المطيع لله ابن المقتدر الخليفة الثالث والعشرين من خلفاء بني العباس)، وقد ترى ما رأيت من جمعه ما بين الجغرافية والتاريخ بعبارة سلسة شديدة الإيجاز، فإن كنت لا تعرف محلة باب المحول، فهي في الجانب الغربي من بغداد، وإن كنت لا تعرف هذا الجانب منها، فأنت تعرف جانب الكرخ منها، وحتى لا ينبهم تاريخ ولادته عندك، ويذكرك بعصر المرتضى قال: ولد أيام خلافة المطيع ابن المقتدر الخليفة الثالث والعشرين من خلفاء بني العباس.

والمرتضى ليس كبقية المولودين يوم ولد، ولا كبقية العلماء الذين ذكرت أسماؤهم، وإنما ولد (حيث اكتنفه المجد والفخار، وحفت به العظمة من شتى نواحيها، من أبوين كريمين ماجدين يرفل كل منهما بأثواب العزّ والسيادة)؛ ووليد مثل هذا ولد في فمه ملعقة من ذهب كما كان يقال، قد لا ينصرف إلى ما انصرف إليه، وأنت تعلم أن كثيرًا من أبناء العلماء الميسورين قد انحرفوا عن جادة آبائهم، وأخذتهم الدنيا إلى مراتع

اللهو، وأضاعوا تاريخ آبائهم، كما أضاعوا ثرواتهم في الملاهي؛ ولكن الوليد السعيد لم تغره المغريات، وإنما جاهد أن يكون عند حسن ظن ذلك الشرف، فزاحم السابقين واللاحقين، وفاز بالحسنيين.

كان المرتضى بحسب ما قال عنه السيد الخرسان عن مصادره، وما ذكره المؤرخون من شمائله وسماته: (إنه رحمه الله كان ربع القامة، نحيف الجسم، أبيض اللون، حسن الصورة، فصيح اللسان يتوقد ذكاءً). وحين عرض مصادر معرفته لم يكن مروره عليها عابرًا، وإنما تحدث عن شيوخه ومكانتهم العلمية بين علماء عصرهم، وعن مؤلفاتهم وأثرها على المرتضى؛ فذكر له ستة عشر شيخًا هم من أساطين العلوم في عصرهم، فأخذ عنهم اللغة والأدب والفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام وما إلى ذلك من علوم؛ وفي مقدمتهم الشيخ المفيد شيخ الطائفة في زمانه، وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة السعدي الأديب الشاعر، والشيخ أبو عبد الله المرزباني الذي كان من أئمة الأدب وفنونه، وأبو علي الفارسي النحوي الشهير صاحب كتابي الإيضاح في النحو والحجة في علل القراءات، وغيرهم من الأعلام.

وبعد تزوُّد المرتضى من زاد الكبار، واستوعب ما قدموه من مفاخر مازالت الأمة تفاخر بها، بدأ بنشر ما استوعبه بعد أن أضاف إليه من علمه وعبقريته ما أضاف، فأخذت عنه أمَّة من طلاب العلوم في زمانهم ممن لا يحصيهم إحصاء، وقد اكتفى السيد الخرسان طيب الله ثراه بذكر أربعة وثلاثين تلميذًا هم من أعلام زمانهم، وفي مقدمتهم الشيخ الطوسي

شيخ الطائفة من بعده، والشيخ النجاشي، وابن الحاجب، وأحمد النيسابوري، والقاضي أبو القاسم علي التنوخي، وأبو الفتح عثمان بن جني، وغيرهم.

برع الشريف (في مختلف العلوم والفنون، وطار صيته في الأوساط العلمية والأدبية، ولمع اسمه في سماء الثقافة العربية والإسلامية التي كانت بغداد يوم ذاك تزخر بالعديد من ألوانها)، وفي أوليات القرن الخامس (كانت حياته تتسم بالعطاء الجزل والحركة النابضة، فما من شيء كان تعلمه إلّا وأفاض به، وما من مسألة تطرح عليه إلّا وأجاب عنها الجواب الشافي الكافي، وهو عبر هذا كله يؤلف ويفتي ويناظر ويستمع لمشكلات الناس التي تطرح عليه ابتغاء حلها، وطلبًا لرأيه فيها... فكان لا يفتأ عن الإفادة والاستفادة، ولا يصرفه شيء عن الاستزادة من القراءة والدرس والتدريس والتصنيف والفتيا، خصوصًا وراعي نبوغه ومتعاهد فقهه الشيخ المفيد مازال على قيد الحياة، والسيد في عز النشاط وكامل، الاستعداد، والفرصة سانحة، والوقت مؤات). تلك عبارة الفقيد السعيد، وقد تشعر بما شعرت به من أنها حينما تمر عليها تدفقت من بين أصابعه بيانًا وإيجازًا ورشاقة، وقد يظن من استعجل الحكم أن السيد غالى في التعبير عن مكانة صاحبه، ومنحه ما لم يكن يستحقه من عبارات الإطراء والوصف الجميل، إلا أنك ما إن تسير معه صفحات معدودات، حتى يأخذك العجب أيما مأخذ؛ إعجابًا بعبارته الآسرة، وإعجابًا بتوثيق ما ذكره عن هذه العبقرية التي زاحمت كبار علماء عصره فزحمتهم؛ وزاحمت

أيضًا كثير ممن نذر جانبًا من ماله على دور العلم وطلبته؛ ولاسيما أن بغداد كانت مقصد الدارسين لكثرة علمائها الأعلام، وطلبة العلم آنذاك حين يرحلون إليها من أقاصي الأرض بالآلاف لا يفكرون بزاد أو مؤونة، فقد كفلت معاشهم وسكنهم، كما كفلت مكتباتها التي لم يشهد العالم مثيلًا لها أدوات بحثهم. ولم يغال السيد الخرسان بما نعت به صاحبه، فقد كانت دور المرتضى (منتجعًا لأهل العلم وطالبي الفضل والمعرفة يرتادونها للتعلم والمدارسة والرفادة، ويستريح في رحابها الوافدون عليه من شتى الجهات)؛ وبيَّن أن السنوات الست ما بين سنة ٤٠٠ ولغاية سنة ٤٠٦، كانت سني بحث وتأليف ودرس، فلم يكن فيها مطوقًا بما طُوِّق به أخوه الرضي، فكأنها سنوت تفرغ علميٍّ، وإعداد فكري، إذ كان أخوه الرضي هو المكلف بأعباء نقابة الطالبيين، ولكن بعد رحيله انتقلت إليه، إذ لا يوجد بين الطالبيين من يستطيع مزاحمته في مكانته العلمية والاجتماعية والنسب الشريف الذي حازه بكل فخر واعتداد.

على أن رحيل الرضي (رضوان الله عليه) يوم الأحد السادس من المحرم سنة ٤٠٦هـ كان له أعمق الأثر في نفسه، ولعل فجيعته بوقع وفاته وحزنه عليه لا تعدلها المصائب التي مرَّ بها (حتى كادت روحه تتلف ولم يعد يتمالك على نفسه، ولا يقوى حتى على معاينة جنازة أخيه).

وما إن مرّ شهر على الرحيل حتى طُوِّقَ بما كان مطوقًا به الرضي من أعباء ولاية المظالم ونقابة النقباء الطالبيين وإمارة الحج والحرمين، وهي أعباء لا تقوم بها العصبة،

بالإضافة إلى تصديه لأعباء المرجعية الدينية بعد نكبته برحيل شيخه المفيد طيب الله ثراه الذي وافاه أجله في الثالث من شهر رمضان سنة ٤١٣هـ، وبرحيله أضيف إليه عبء جديد هو عبء المرجعية الدينية. وكنت قبل عقود مغرمًا بالسيد الرضي بعد قراءة ما حبره الدكتور زكي مبارك (رحمة الله عليه) عنه في كتابه عبقرية الشريف، وأنفقت من بعد خمس سنوات بالتمام والكمال بإعادة تحقيق نهجه والتعليق عليه، وإثبات تعليقات السيد الراوندي على نسخته من النهج التي عدها الفقيد عبد العزيز الطباطبائي أقدم شروح النهج.

وأشهد أن الفقيد العزيز (رضوان الله عليه) بما سطره عن المرتضى في تقديمه كتاب الانتصار قد يكون أول من أنصفه وحببه إلى القراء -وأنا منهم- ومن بين ما قال (رضوان الله عليه): (ولقد كان سيدنا المرتضى -كما تحدث مؤرخوه- أكثر استيعابًا من غيره لمشكلات الأمة وقضاياها، وأحفل بأمورها، وأبصر في تشخيص أدوائها وعلاجاتها، وذا روح رياضية عالية، وفكر قيادي ممتاز أهَّلاه للاضطلاع بمسؤوليات الأمة، والتصدي لقضايا المرجعية الدينية العامة وإدارة شؤونها)، ثم عرج على ذكر مقومات نجاحه في إدارتها، مع اختيار أمثلة لتوثيق ما ذهب إليه؛ منها: زكاوة البيت، وشرف الأرومة، وطهارة النفس، وإشراق الضمير، ورقة الشعور، والإحاطة اللازمة، والتوفر على صنوف المعرفة، ويسر الحال الذي مكنه من تحقيق ما كان يسعى إلى تحقيقه.

وقبل أن يذكر ما تركه المرتضى من إرث معرفي قال: (كان السيد المرتضى

نمطًا فذًّا في عالم المرجعية الدينية، زخرت أدوار حياته بالعطاء الوافر والخير العميم، وكان لنا من تراثه الفكري الذي أبدع فيه وجلَّى ما يدل بوضوح على ما كان عليه السيد المرتضى من تركيز علمي، وكفاءات وخبرات نادرة أغنى بثمارها المكتبة العربية والإسلامية).

خص الفقيد كتب المرتضى المطبوعة بالتنويه لضيق وقته أثناء طباعة الانتصار؛ أما التي لم تطبع بعد فلم يتحدث عنها، لأن (الحديث عنها يطول ويتشعب، لما تستلزمه طبيعة التحقيق من التثبت من أسمائها، وتمييز المفرد منها بالبحث عن المبحوث ضمنًا وفي جملة؛ لأني وجدت كثيرين ممن عنوا بعدِّها وتبيانها أغمضوا وخلطوا واشتبهوا.. فلا يسعني الإسهاب في بيانها وتعدادها، لذلك آثرت أن أخص الحديث بخصوص المطبوع من آثاره..). وإن كان لم يذكر بقية مؤلفاته فإنه لم يترك الباحثين من دون تشوق الطريق إليها؛ قال: (ومن أراد الاستزادة عن بقية آثاره فعليه بملاحظة ما ذكره تلميذه النجاشي في رجاله ص ١٩٢- ١٩٣، وتلميذه الآخر الشيخ الطوسي في الفهرست ص ١٢٥- ١٢٦، وابن شهراشوب في معالم العلماء ص ٦٩- ٧١، وأعيان الشيعة ٤١/ ١٩٥، والغدير ٤/ ٢٦٥- ٢٦٦، ومقدمة الأمالي ١/ ١٢- ١٧، ومقدمة الصفار لديوان المرتضى ١/ ١١٧، سوى ما يجده مبثوثًا منها في أجزاء الذريعة للطهراني حسب أوائلها) وفي هذا ما يغني الباحثين ويدلهم على التراث الخالد للسيد المرتضى (رضوان الله عليه).

تحدث السيد الفقيد عن اثنين

وعشرين كتابًا للرضي طبعت في أزمنة متفاوتة، وأماكن مختلفة ما بين مصر والعراق وإيران وغيرها، فذكر لكل كتاب منها سنة طبعه ومكانه وعدد صفحاته، وعدد طبعاته، ومناسبته، وموضوعه؛ أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: المسائل الناصريات التي استلها المرتضى من فقه جده لأمه الناصر الكبير، فشرحها واستدل على صحتها، والشافي في الإمامة الذي أبطل فيه حجج العامة، وتصدى للرد على كتاب المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وغيرها.

وخص كتاب الانتصار الذي هو بصدده بدراسة معمقة، وكان الفقيد قد وضع القارئ نصب عينيه، فقال: (ولكي نلج - أنا والقارئ - في رحاب الانتصار وننعم النظر بظلاله لابد لنا من الإلمام بأمور تعيننا على ذلك). فدرسه في أربعة محاور هي:

- الانتصار فكرة وأسلوبًا.
- في رحاب الانتصار وظلاله.
- الانتصار والفقه المقارن وعلم الخلاف، وما هما؟.
- طبعاته والحديث عن هذه الطبعة.

رأى السيد (رضوان الله عليه) أن المرتضى ألف كتابه الانتصار بعد سنة ٤٢٠ هـ بأدلة موضوعية عن طريق ما ورد في الكتاب نفسه، وتحدث بإيجاز وتركيز في القسم الأول من تقديمه الذي ألمحت إليه إلى أن مهمة الكتاب الامتناع من الظالم والاستظهار على الخصم لتجلية الحقائق الفقهية التي كادت تنطمس معالمها وتنبهم جراء المؤثرات العاطفية والتضليل اللذين كانا يمارسان على فقه الشيعة الإمامية بسبب أزمنة الاضطهاد والمحن المذهبية؛ لأنهم انفردوا

بفتاوى - بزعمهم- مما مهد عندهم بفكرة الابتداع، وقد أشار (رضوان الله عليه) إلى كل ذلك في مقدمته إذ بين (المسائل الفقهية التي شُنِّع بها على الشيعة الإمامية، وادُّعِي عليهم بمخالفة الإجماع)، فانتصر المرتضى عليهم بالحجة الدامغة، لأن ما اعترضوا عليه وافق غيرهم من العلماء المتقدمين أو المتأخرين، فحلل السيد وعلل على وفق ما ذكره المرتضى (رضوان الله عليه)؛ ثم انتقل للحديث عن أسلوبه في الانتصار فقال: (وجدته يتميز ببساطة التعبير، وتحاشي كل المعوقات البيانية التي يمكن أن تؤثر على الغاية، وتخل بالقصد والغرض، مع التزام تقليدي في طريقة العرض، حيث يبتدئ من مسائل الطهارة وينتهي بمسائل المواريث)، وبعد أن أوجز هذا الإيجاز الجميل تابع ما أورده الشريف في هذا الشأن، ومن بين ما ذكره أنه أحصى المسائل الفقهية التي انفردت بها الإمامية مما أورده المرتضى في كتابه فكانت ٢٥٢ مسألة في جزأي الكتاب، أما المسائل المظنونة فكانت ٨٢ مسألة في الجزأين.

وتلاحظ أن العنوان يوحي أن لغة الفقيد ميالة إلى الأسلوب الأدبي الرائق الذي يبتعد عن جفاف العبارة؛ وبيَّنَ من بينِ ما بيَّنَه أن كتاب الانتصار تخللته تحقيقات أدبية ولغوية وفقهية، فرصدها بذكر مواضعها في الكتاب؛ وقال أيضًا: إن المرتضى لم يغفل رأيًا أو يقلل من قيمته وإن كان يختلف مع صاحبه، مادامت الغاية تحرِّي الحقيقة وإصابة الواقع، فرصد أربعة وخمسين شخصية ورد ذكرهم في الكتاب، وعزف عن ذكر الباقين منهم، وهم كثر.

وقال: إن المرتضى قد يعمد أحيانًا إلى ذكر المصدر وصاحبه، أو يكتفي بذكره، وقدم أمثلة من الكتاب على ذلك، وقال من بين ما قال أيضًا: إن المرتضى في بيان ما انفردت به الإمامية من أحكام، أو ظُنَّ انفرادهم بها بيَّن ما يجب الإحاطة به عن طبيعة الأدلة التي اعتمدت عليها الإمامية، وعلى الرغم من توسع الفقيد في عرض هذا المبحث ودقته فيه، فإنه رآها نبذة وجيزة عن الإجماع الذي احتج به المرتضى في مسائل الانتصار، في وقت أبهر قارئه بحسن عرضه في وجازة تبتعد كل البعد عن الإخلال والإسفاف والإطالة، فكانت قراءة موضوعية يغبط عليها.

وفي مبحث الانتصار والفقه المقارن أو علم الخلاف، وما هما؟ عرف الفقه المقارن تعريفين؛ الأول: يراد به جمع الآراء المختلفة في المسائل الفقهية على صعيد واحد من دون إجراء موازنة بينها؛ والثاني: يراد به جمع الآراء الفقهية المختلفة وتقويمها، والموازنة بينها بالتماس أدلتها، وترجيح بعضها على بعض، والأخير أقرب إلى ما سمَّاه الباحثون القدامى بعلم الخلاف أو الخلافيات، وبعد هذا التعريف نقل الفقيد ما ذكر في هذا الاتجاه من آراء.

وبشأن أهمية الكتاب في ميدانه قال: (ويلوح لي أن السيد المرتضى بعمله هذا في الانتصار يكون أول من خطا خطوة جادة بيِّنة في إشاعة الفقه المقارن وتعميمه، بتصنيفه فيه كتابًا تنتظم فيه كل أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والعقود والإيقاعات والحدود والديات والمواريث، كما يبدو لي أنه نمط فذ من أنماط الفقه المقارن...)، وفي هذه

الأثناء عرّج على ذكر بعض كتب الإمامية التي اهتمت بالفقه المقارن. وتمنى في نهاية عرضه طيب الله ثراه على مرجعية النجف أن تبادر إلى تحقيق هذا الكتاب وأمثاله وتيسيره لطلبة العلم، وتعميمه على المعاهد الدينية، وإلزام طلبتها بمدارسته.

وختم بحثه من بعد بالحديث عن طبعات الانتصار، فذكر أن أول طبعاته كانت سنة ١٢٧٦هـ، وهي طبعة حجرية نشرها محب الخير محمد باقر بطهران، وبعد تسع وثلاثين سنة طبع ثانية بطهران طبعة حجرية أيضًا سنة ١٣١٥هـ، ولم يطبع سوى هاتين الطبعتين، ثم أشار إلى هذه الطبعة التي تولاها الكتبي. وذكر أنها قوبلت على مصورة من الانتصار بخط أبي الحسين علي بن إبراهيم الفرهاني كتبت سنة ٥٩١هـ وقابلها سماحته بالتعاون مع الشيخ الكتبي على مخطوطة في مكتبة الإمام كاشف الغطاء انتهى ناسخها من نسخها سنة ١٠٨٧هـ، وبسبب كثرة هناتها، اقترح سماحته على الكتبي إهمالها؛ وذكر أن الكتبي حرص حرصًا بالغًا على تنقية هذه الطبعة من الأخطاء، مؤثرًا أن يكون تصحيح الملازم معه، إلا أن السيد كان ينقطع عنه لكثرة مشاغله.

وأزعم في ختام هذ العرض الموجز الذي لم أستطع إنصاف الباحث فيه أنه (رضوان الله عليه) كان أكاديميًّا في دراسته، التزم بشروط البحث العلمي، جادًّا في تقديمه، حريصًا كل الحرص على نسبة المعلومات لمصادرها الأصيلة، من دون تحيز لمصدر بعينه على آخر، وقد بلغت مصادر التقديم ستة وثمانين مصدرًا ما بين قديم وحديث، وكتب دراسته الماتعة بأسلوب جمع بين

البيان والفصاحة وسديد القول، وسحر العبارة، وقد لا أكون مغاليًا إذا قلت: إنها تنماز على كثير من كتابات الباحثين لسلاستها وحسن صياغتها وجودة سبكها.

رحم الله الفقيد، وطيب ثراه، وأسكنه فسيح جنانه، وحشره محشر أجداده آل البيت (سلام الله عليهم)، وهو اليوم بجوار جده المرتضى (عليه السلام).

وبعد: فيظهر لي على الرغم من الجهد الذي بذله الكتبي في هذه النشرة من الانتصار فإنها لم تحقق على أصول خطية معتبرة، وإن طبعاته السابقة الحجرية هي بمنزلة النسخ المخطوطة، ولكن لا تعرف المخطوطات التي اعتُمدت في طبعها، وهي قديمة من زمان الطبع الحجري.

وإن كان الكتاب قد طبع حديثًا فلا أظنه أخذ حقه من التحقيق العلمي الرصين؛ ولأهميته وقيمته العلمية والتاريخية تمنيت على أخي العلامة المحقق السيد محمد صادق (دام عزه) أن يجمع مخطوطات الانتصار، ويعيد تحقيقه على أسس التحقيق التي لا تغيب عنه، لإخراجه بأفضل صورة كي ييسره على طلبة العلم من الدارسين، وعلى الباحثين في ميدان الفقه المقارن.

وبعد فهذا جهد المقل أضعه بين يدي أخي محمد صادق -على استحياء- وأدعو الله أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه، ويتجاوز عن خطايانا ويجعل خواتيمنا على خير، إنه على كل شيء قدير.